يوميات المواطن "سين"

قصة بقلم يحيى يخلف

يهمكم بلا شك سماع ما اريد ان اقول ... لماذا لا ؟... في الشرق الاوسط يملأ معظم الناس اوقات فراغهم بالتفرج على لافتات المحلات التجارية ، والتفرج على الصور العارية ، والقراءة عن :

ـ يوميات امرأة تستلقي .

ـ يوميات مدام اكس .

ـ يوميات شقق مفروشة للغاية ...

سحب جدي طقم اسنانه وبدأ ينظف ما بين الاسنان بالعود ... جدي اغوى ثماني نساء وتزوج ثلاثا منهن ، ، وكان اشجع اهل زمانه في الفروسية واقدرهم على اصابة الهدف بالطبنجة والبندقية العصملية ... قال بفم خال :

ـ عليك اللعنة ... صار عمرك عشرين عاما ولا تزال تجهل استعمال البندقية ..

بعد ذلك بشهور قليلة مات جدي .. مات فجأة عن عمر يناهز السبعين قضاها في اعمال البر والتقوى والدفاع عن ارض الوطن كما نشر اصدقاؤه في صفحة الوفيات .. ولم يبق في المنزل منه سوى صورته بوجهه العابس وكوفية المجاهدين التي يعتمرها على رأسه ..

والدي لم يكن مثل جدي .. والدي كان يملك محلا لبيع الاسرجة والركائب والكرابيج وسائر مستلزمات الخيل..

ذات عام اكتشف ان هناك اقبالا متزايدا على الكرابيج وان عددا من الرجال يملكون سحنات محروقة وشوارب مفتولة ، يشترون هذه الكرابيج بالجملة .

قال لامي على الغداء :

ـ نفس الرجال يأتون يوما بعد يوم ويشترون حزمة من الكرابيج»

وفي اليوم التالي على الغداء ، كان ابي يرتجف .. عندما سألته والدتي عن سبب اصفرار وجهه اجابها :

ـ انهم من رجال المخابرات يقطعون الكرابيج على جلود المعتقلين في السجون السياسية .

يومها احسست بان وجه جدي في الصورة المعلقة على الجدار يزداد عبوسا ، واحسست به يجمع بين شفتيه بصقة كبيرة ويغسل بها وجه ابي الذي يحصل على رغيفه من دماء المناضلين ..

ـ يوميات تاريخ بلا ايام .

ـ يوميات ايام بلا تاريخ .

ـ تاريخ بلا ايام ولا ....

منذ ذلك اليوم اصبح والدي يمشي الحيط الحيط ويقول يارب استر ... اغلق المحل ... ثم باعه وانتقل الى صناعة الجواعد ... اصبح يعود الى البيت باكرا ... واصبح يكثر من الصلاة ومن ممارسة كل ما من شأنه اثبات حسن سلوكه وولائه لاولى الامر ..

وحدث ذات يوم ان اكتشف والدي تحت وسادتي منشورا سياسيا، فاصيب بهلع ليس له مثيل .. وسقته امي طاسة الرعبة .. وفركت جبينه بقشور الليمون وصنعت له شراب اليانسون والبابونج .. طردني من البيت ثلاثة ايام وفي اليوم الرابع سمح لي ان ادخل ولا اغادر المنزل ...

صار يديم النظر عبر النافذة ... وصار يعتقد ان كل من يقف تحتها او يسير بتباطوء في الشارع هو من رجال المخابرات .. كل الذين يعبرون الشارع صار يراهم بوجوه ذات سحنة محروقة .. وشوارب مفتولة معقوفة .. وكان يرى بايديهم مئات الكرابيج ..

اصاب والدي مس .. ومع الايام اصيب بالجنون .. فنقلوه الى مستشفى الامراض العقلية .. ولم يبق في المنزل سوى والدتي، وصورة جدي العابسة المعلقة على الجدار ...

كانت والدتي طول النهار تحوك الصوف حتى خيل الي انها تفر صباح اليوم كلما نسجته يوم امس . وانها تفعل ذلك بانتظار الذي لن يأتي ...

ربما كانت بينها وبين نفسها تكرهني لانني سببت الجنون لرجلها.. لكنها لم تكن تبدي ذلك .. كانت توفر لي كل ما احتاجه من مصاريف للدراسة ومشاركة الاصحاب في الرحلات والسينما ... بيني وبين التخرج لم يكن سوى سنة واحدة والنقود تنسرب .. ولكن لا بأس .. سوف يمر العام .. وسوف اصبح موظفا لا علاقة له بصناعة الجواعد ..

* * *

بعد عام .. قبل التخرج بايام ..بدأت الحرب .. ثم انتهت الحرب .. لم افهم تماما ما حدث ، لكن الذي فهمته بشكل جيد ... وعرفته بشكل جيد ، هو انني على استعداد لان ادفع حياتي من اجل استعادة الارض ..

وحين وقفت امام صورة جدي في اليوم الخامس للهزيمة ، كانت ذقني غير حليقة ومهملة .. وكانت ثمة دموع تتجمد في عيني .. سمعت صوته .. اؤكد انني سمعت صوته وسمعت صهيل فرسه .. قال بصوت يشبه صليل السيوف :

« احصل على بندقية ... تدرب عليها وقاتل » .

استدرت عنه سريعا .. لم استأذنه .. وانما ركضت سريعا الى الشارع .. ووقفت امام واجهة محل لبيع السلاح .. لم يكن هناك سوى بنادق للصيد .. لم تكن هناك بنادق حقيقية .. عدت حزينا وقلت لجدي الذي يتبرز على الحائط ...

« لم استطع ان احصل على بندقية »

شعرت ان غضبه قد ازداد ، وانه بعد حين سيقفز من اطـــاره ويصفعني ، فاستمحته عذرا ، ووعدته بان اكون حفيده الذي سيحصـل علـى بندقيـة ...

ـ يوميات طويلة للغايـة ..

ـ يوميات .. عذاب .. وشمس حارقة .. وانتظار ينزّ اسى ...

ـ يوميات بلا اجنحة .. بلا رأس .. بلا اقدام ..

ـ يوميات مالحة بكل الجفاف ..

قال صاحبي ذات يوم : « فرجت »

سالته بلهفة : « كيف ؟ »

قال هناك تاجر اسلحة يبيع في السوق السوداء .. ولكن .. عدت اساله بقلب مضنى : ولكن .. ماذا ؟ « اجاب الاسعار مرتفعـة .. خياليـة ...

ظللت افكر طوال الليل .. لم يكـن هنالك حل سوى سرقة اساور امي .. وكم كان ذلك صعبا .. شعرت وانا احدق في الصورة المعلقة على الجدار بنظرات جدي المشجعة .. وسمعته يقول :« لا بأس .. انها من ارباح الكرابيج .. خذها واشتر بندقية » ..

وحين مددت يدي لتاجر الاسلحة بالاساور ، اخذها دفعة واحـدة وناولني بندقية جديدة .. وراح .. حين خلوت بالبندقية ، راودتها عن نفسها .. لم تكـن صعبة ..كانت سهلة للغاية .. وانيسة اعطتنـــي نفسها .. تركتني بلا مقاومة اكتشف تضاريسها ومنعرجاتها وطقسهـا الرائـع .. وفي الصباح عندما اكتشفت والدتي ان اساورها قـد سرقت اصيبت بنوبة قلبية سببت لها الوفاة على الفور ..

وهكذا وجدتني في البيت وحدي .. انا وصورة جدي .. وكانت معنـا البندقية .. قال صاحبي : ـ انتظـر حتى يبدأ اطلاق النار ثـم اطلق على الفـور ..

لكن ، كان لجدي رأي يختلف تمامـا .. فذات مساء قال :«عليك بحملها والتسلل ليـلا عبر الحدود ومهاجمة العدو في مواقعه ..

وسريعـا وافقت جدي ، واتفقنـا على العبور واكتشاف سراللـيل المتفق عليه بيـن ازهار الحنون وشقائق النعمان ..

المرة الاولى كان هنالك بعض القلق ..

المرة الثانيـة كانت في غايـة السهولة مثل قراءة الفاتحة ..

عدت في المرة الثالثة الى البيت لاهثا . كانت البندقية تنام تحت المعطف الذي اتدثره ، وعندمـا دخلت غرفتي فوجئت بعدد من الرجال ذوي الشوارب المعقوفة والسحن السوداء ..

تقدموا نحوي .. حاولوا انتزاع البندقية .. لم يستطيعوا ..كنت اتشبث بها .. توحدت بهـا توحدت بي .. صارت جزءا من لحمي ... ونبتت بها عروق .. وجرى بها الدم عبر عروقي . انهالوا عليّ ضربا بالكرابيج .. واحسست بملوحة الدم بين اسناني .. ثم فقدت وعيي..

ـ يوميات مواطن بلا بندقية ..

ـ يوميات بندقية في مدينة منهوكة العرض ..

ـ يوميات عرض في مدينة لا ينقذها الا غابة بنادق ..

قال المحقق .. :« تهمتك خطيرة .. تحوز السلاح بلا ترخيص .. وهذا يتنافى مع امن الدولة » .

قال المحامي الذي وكله اصدقائي :« تخرج بالكفالة .. وبعد ذلك يحلهـا الف حلال ..»

وعندما عدت الى البيت مكدودا .. ممزق الملابس .. كان جدي ينظر بعينين كعيني الصقر لم يكـن يائسا كمـا كنت اتوقع .. فوجئت به يتخلى عن عبوسه ويبتسم لي ..

كانت ابتسامته خضراء مثل احراش عجلون .. وقال بصوت واثق: « حسنـا .. جرب مرة اخرى .. »

فلسطيـن

يحيى يخلف

دار الآداب تقدم

يوسف شرورو

الحزن يموت أيضًا

رواية

مأساة الانسان الفلسطيني في الوطن العربي ...

صدرت حديثا ٦٠٠ ق. ل.